مجلة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الرباط

جامعة محمد الخامس

العدد السادس والعشرون

2006

مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط

مجلة محكمة تصدر مرة كل سنة

المدير : محمد برّيان

هيئة التحرير

عمر أفا

محمد المغراوي فاروق حمادة

عبد السلام الداشمي قاسم الحسيني

تعبر الأفكار الواردة في المقالات عن آراء أصحابها

مناخ الأندلس في العصر الأموي
وخصائصه من خلال النصوص

محمد حقي
كلية الآداب – بني ملال

مقدمة :

رغم ما يقال عن المصادر المغربية الأندلسية الوسيطية من كونها جافة وخالية من المعلومات غير السياسية، فإن توفر الرؤية الواضحة لدى الباحث وانفتاحه على مختلف أنواع المصادر وتوظيف محتوياتها بشكل دقيق وجيد، يجعله يكتشف معطيات جديدة تهم مواضيع اجتماعية واقتصادية وحتى طبيعية. وقد كان موضوع المناخ في الأندلس من هذه النوعية من المواضيع ؛ فالحكم سابق الذكر يجعل الخوض فيه مستحيلا، لكن تتبع بعض التفاصيل الدقيقة التي ترد في المصادر متناثرة وخارج مراقبة الكتاب وبفعل ميلهم نحو الغريب أحيانا، سمح بإيراد بعض الأخبار على قلتها. وقد اعتمدنا في دراسته على الأخبار المباشرة التي يوردها المؤرخون إضافة إلى مصدر بكر، ونقصد به ظاهرة الاستسقاء والصحو اللذين تقام لهما صلاة كلما عم الجفاف أو طالت فترة التغيم والأمطار. وبناء على المعطيات المتوفرة سنعمل على رسم صورة لمناخ الأندلس في ظل الحكم الأموي (138هـ/756م – 422هـ/1031م).

1 - ملامح مناخية من خلال "صلاة الاستسقاء"

الاستسقاء من فعل استسقى الذي يعني طلب السقي، وصلاة الاستسقاء هي صلاة يقيمها المسلمون طلبا للغيث عند انقطاعه[1]. وتشبه هذه الصلاة صلاة العيدين وقتا وصلاة دون التكبير إلا الواجب، وتتكون من ركعتين جهريتين

(1) ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، ج 14،ص. 393.

تعقبهما خطبتان بينهما جلوس، ويستقبل الإمام الناس في الخطبة الأولى والقبلة في الثانية، ويقلب ثوبه ويقلده الناس[2]. وقد أثارت هذه السنة خلافات كثيرة بين العامة والفقهاء حول كيفية قلب الثوب، حيث اختلفوا بين الأمام والخلف والظاهر والباطن والأعلى والأسفل[3]. ولم نتمكن من الحصول على خطب كاملة لمعرفة طبيعة المواضيع التي تتناولها، لكن المقتطفات المتوفرة تبين أنها تركز على تذكير الناس بذنوبهم لحد التقريع والتوبيخ وحثهم على التقوى والورع والاستغفار من الذنوب وترك البخل وإفشاء الصدقات[4].

تتم الصلاة عادة في المصلى والمساجد أو فيهما معا[5]. وقد تم تنظيم هذه العبادة في الأندلس عبر مراحل. حيث بدأت بسيطة و لم تحترم حتى بعض السنن مثل سنة تحويل الأردية التي لم يشرع في ممارستها إلا في الثلث الأخير من القرن 2هـ/8م على يد الفقيه المالكي زياد بن عبد الرحمن شبطون (ت 194هـ/810م)[6]. وخلال القرن 4هـ/10م، نظمت بشكل دقيق ومركزي، فالخليفة هو الذي يرسل رسائل إلى العمال في الأقاليم يأمرهم بإقامة الصلاة ويحدد وقتها وكيفية ذلك. وقد احتفظ ابن حيان برسالة الناصر سنة 317هـ/928م التي حددت الصلاة كما يلي : "وقد أمرنا الخطيب فيما قبلنا بالاستسقاء في المسجد الجامع يوم الجمعة والجمعة الثانية التي تليها إن أبطأت السقيا، والبروز يوم الإثنين بعدهما بجماعة المسلمين عندنا إلى مصلاهم، أو يأتي الله قبل ذلك بغيثه (...) فمر الخطيب بموضعك أن يحتمل على مثل ذلك ويأخذ به من قبله من المسلمين"[7]. ويوضح النص أن الصلاة تتضمن الدعاء بطلب الغيث لجمعتين متتاليتين أثناء الخطبة، فإن لم ينزل يخرج الناس في الإثنين الموالي إلى الصلاة وذلك في العاصمة قرطبة وكل المدن و القرى في الأقاليم. وقد تتكرر الصلاة مرات عديدة ؛ ففي سنة 330هـ/940م استسقى الناس سبع مرات[8] وفي سنة

(2) ابن أبي زيد القيرواني، الرسالة، كانو، ص. 52.
(3) عياض، ترتيب المدارك، مطبعة فضالة، المحمدية، 1968، ج. 3، ص117. ومذاهب الحكام، ص.305. والخشني، قضاة قرطبة، مكتبة المثنى، بغداد، 1953، ص. 46.
(4) النباهي، المرقبة العليا، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1948، ص. 70–71. والمقري، أزهار الرياض، صندوق إحياء التراث الإسلامي، ج. 2، ص. 279–280.
(5) ابن حيان، المقتبس، المعهد العربي الإسباني للثقافة، مدريد، 1979، ج. 5، ص352. وابن عذاري، البيان المغرب، دار الثقافة، بيروت، 1983، ج. 2، ص. 199.
(6) ترتيب المدارك، ج. 3، ص117. وقضاة قرطبة، ص. 46.
(7) ابن حيان، المصدر السابق، ج. 5، ص. 251-252.
(8) نفسه، ص. 476-478.

379-380هـ/989-990م عشر مرات[9]، حتى ينزل الغيث أو ييأس منه وهذه حالة نادرة ما دامت الصلاة تتوج بغيث قليل أو كثير في معظم الحالات.

يؤم الناس في الصلاة صاحب الصلاة في معظم الحالات، ونظرا لكون قاضي الجماعة في قرطبة عادة ما يتحمل هذه المهمة، فإن من يؤمون الصلاة في العاصمة كانوا هم قضاة الجماعة. وقد يخرج الخلفاء عن القاعدة فيسندونها إلى فقهاء آخرين كما حصل سنة 302هـ/914م[10].

يستعد الأئمة لهذه الصلاة بطرق مختلفة تنم عن الورع والتقوى. فعندما طلب الناصر من منذر بن سعيد الاستسقاء عام 350هـ/960م صام أياما تنفلا وتقربا إلى الله[11]، أما محمد بن يبقى بن زرب سنة 379هـ فتصدق بصدقات كثيرة عن نفسه وعن خليفته[12]. ولم يكن هذا ليحصل لولا الأهمية التي يعلقها الناس على من سيكون وسيطهم بينهم وبين ربهم، فالاعتقاد السائد هو أن نزول الغيث متعلق بتقوى وورع الإمام الذي صار بدوره يخاف على مكانته ولا يتنفس الصعداء إلا بعد نزوله. فمثلا لما صلى أحمد بن محمد بن زياد بالناس، سنة 274هـ/887م، وسقوا تيمنوا به وأثنوا عليه[13]، أما محمد بن يبقى بن زرب (379هـ) فقد ذمته العامة لعدم نزول الغيث ونسبوا ذلك إلى ضعف ورعه بركونه إلى المنصور العامري وقبول ماله الحرام وهاجموه وكادوا يقتلونه لولا التجاؤه إلى مقبرة محصنة وحماية صاحب الشرطة له [14].

تتم الصلاة عادة في الشهور ما بين دجنبر وماي وهي ذات أهمية خاصة بالنسبة للناس كما سنبين فيما بعد، وقد يتحين بعض الأئمة وقت نشوء السحاب وقرب نزول الغيث لإقامتها تجنبا للفضيحة. وقد خلد الشاعر ابن الطراوة (ق5هـ/11م) ذلك فأنشد أبياتا يسخر من قوم خرجوا للاستسقاء والنهار مغيم والرذاذ ينزل فلما برزوا للمصلى عاد الصحو[15].

---

(9) النباهي، المصدر السابق، ص. 78-79. وابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، مكتب نشر الثقافة الأندلسية، القاهرة، 1954، ج. 2، ص. 97.

(10) ابن حيان، المصدر السابق، 102–103.

(11) النباهي، المصدر السابق، ص. 70–71.

(12) نفسه، ص. 78-79.

(13) ترتيب المدارك، ج5، ص. 190.

(14) النباهي، المصدر السابق، ص. 79.

(15) ابن عسكر، أعلام مالقة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1999، ص. 344 وابن الأبار، تحفة القادم، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986، ص. 19 .

=

كانت للمتصوفة أدوار وطرق خاصة بهم. فقد كان التشفع بالصالحين أثناء الصلاة أمرا مألوفا عند المسلمين منذ عهد عمر بن الخطاب حين استشفع بالعباس عم الرسول أثناء الصلاة عام الرمادة[16]، وكان الأندلسيون فعلا يمارسونه. فأحدهم يتوسل بالزاهد أيوب البلوطي في عهد عبد الرحمن الثاني[17]، وآخر بأبي العجنس الزاهد[18]، وآخر بأبي نصر الزاهد[19]، وآخر بآل البيت[20]. وتوسل الناس أيضا بقبور الأولياء كما كان يفعل بقبر يحي بن يحي الليثي[21]. لكن لما تهيكلت حركة التصوف حاولوا تجاوز الشكل التقليدي للاستسقاء بالاقتصار على بعض الأدعية أو التضرع والبكاء أو النظر إلى السماء بعيون دامعة[22]، فهم يكتفون بالمعنى اللغوي للصلاة.

بعد دراسة الجانب الثقافي – الديني للاستسقاء سنعمل على كشف وجهه الطبيعي – المناخي. للأسف فمصادرنا ورغم كثرة أخبارها عن هذه العبادة إلا أنها لم تحدد التواريخ بشكل دقيق أو حتى تقريبي إلا في خمس عشرة حالة تمتد ما بين 206 و400هـ سنعمل على تفريغها في جدول وتحليلها.

=كتب ابن الطراوة في ذلك فقال :

خرجوا ليستسقوا وقد نشأت ... بحرية يبدو لها رشح
حتى إذا اصطفوا لدعوتهم ... وبدا لأعينهم بها نضح
كشف الغطاء إجابة لهم ... فكأنما خرجوا ليستصحوا

(16) ابن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، دار المنصور، الرباط، 1972، ص. 64.
(17) ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، مصر، ج1، ص147–146. وابن الأبار، التكملة، مطبعة السعادة، القاهرة، 1955، ج1، ص. . 198
(18) ابن الفرضي والمصدر السابق، ج1، ص. 352.
(19) ابن الأبار، المصدر السابق، ج2، ص. 750.
(20) بيوتات فاس، ص. 64.
(21) المقري، نفح الطيب،، دار صادر، بيروت، ج2، ص. 9.
(22) ابن الخطيب، الإحاطة، تحقيق شقور، ص40–39. والتادلي، التشوف، كلية الآداب، الرباط، 1984، ص217–281. و254-255 .

1 – المعطيات المناخية في الأندلس من خلال صلاة الاستسقاء

السنة	الشهر	المكان	الإمام	الاستجابة	المصدر
قبل 206هـ/821م		قرطبة	حامد بن يحي ق.ج.	غيث	التكملة 1
207هـ/822م		قرطبة	أبو نجيح مسرور بن محمد ق.ج.	غيث	المغرب لابن سعيد1
206-238هـ/ 232هـ/852م			سعيد بن سليمان القاضي	غيث	ابن سعيد 1 – النباهي
238-261هـ/ 260هـ/886م			ع. بن محمد بن مرتنيل ص.ص.	غيث	ترتيب المدارك 4
274هـ/887م	يناير–فبراير		أحمد بن محمد بن زياد ق.ج.	غيث	ترتيب المدارك 5 – ابن سعيد 1 – ابن عذاري 2
275هـ/279م	مرات	قرطبة	أحمد بن ع. الله بن خالد ص.ص.		ابن الفرضي 1
302هـ/914م	ماي	الأندلس	محمد بن عمر بن لبابة–أحمد بن أحمد بن زياد	غيث قليل	ابن حيان 5 ابن عذاري 2
314هـ/925م	مارس	الأندلس	أحمد بن بقي بن مخلد ص.ص.	غيث	ابن حيان 5
317هـ/926م	مارس	الأندلس	ص . ص.	لم يحدث شيء	ابن حيان 5 – ابن عذاري 2
330هـ/940م	يناير–فبراير	الأندلس	محمد بن عبد الله بن عيسى ق.ج.ص.ص.	غيث	ابن حيان 5
342هـ/952م		الأندلس		غيث	ابن أبي زرع
350هـ/960م		الأندلس	منذر بن سعيد البلوطي ق.ج.ص	غيث	أزهار الرياض 2 – نفح 2 – النباهي
362هـ/972م	ابريل	الأندلس	محمد بن إسحاق ق.ج. – محمد بن يوسف ق. قبرة	غيث	ابن حيان 6
379-381هـ/ 988-990م		الأندلس	محمد بن يبقى بن زرب ق.ج.	فشل	ابن الفرضي 2 النباهي
400هـ/1009م			ملوك البجاني	غيث	الصلة 1 الإحاطة / شقور 88

يبين الجدول أن الأندلس تتعرض لضربات جفاف كل ثمانية عشر سنة، وإذا أخذنا معطيات القرن الرابع الأكثر تكاملا تصبح المدة حوالي اثنتا عشرة سنة فقط، وهي المدة التي تمنحها الدراسات المناخية المعاصرة للمناخ المتوسطي (ضربات دورية كل 8 أو 10 أو 12 سنة).

يوضح الجدول أيضا وقت الجفاف داخل السنة الواحدة، فشهور يناير و فبراير ومارس وأبريل وماي هي أوقات الجفاف في الأندلس، وهي توافق الفترة الشتوية التي تحتاج فيها الزراعات الشتوية وخاصة الحبوب للمياه. وبناء على ذلك فاختيار وقت الصلاة مرتبط بالسنة الفلاحية إذ يدفع تخوف المجتمع الذي يعتمد على فلاحة معاشية في معيشته من انعدام القوت وانتشار المجاعة إلى المطالبة بها، فيستجيب أولوا الأمر بالدعوة إلى ذلك. وتؤكد المصادر هذا الارتباط بوضوح، فالوزان يقول عن المغرب المشابه للأندلس : "إذا لم ينزل مطر كذلك في أكتوبر فإنه لا يرجى أن يكون حصاد في تلك السنة. وإذا لم تمطر السماء في شهر أبريل كانت القمح منعدمة في البوادي"[23]. كما أن انتشار المعرفة بالأنواء الممطرة تجعل الناس يترقبون وقتها لنزول الغيث أو يستسقون. ويحدد ابن البناء المراكشي تلك الأنواء الممطرة بقوله : "إذا نزل المطر في نوء الجبهة [13-19 فبراير] والذراع [4-8 يناير] والثريا [12-16 نونبر] والسماك [6-11 أبريل] تم خير العام و خصبه"[24]. وكما يلاحظ فهذه الأنواء توافق فترة الشتاء وأيضا وقت الجفاف كما تبينه أحداث الاستسقاء. وبذلك تتحدد مواعيد هذه العبادة بناء على حاجة الفلاح إلى المطر ومعرفة دقيقة بالأنواء الممطرة، وهذا ما يجعل الجفاف إما في بداية الموسم الفلاحي أو وسطه (274 و330هـ) أو آخره (302 و314 و317 و362هـ). وقد كان في الأندلس موظف حكومي يسمى "صاحب الحرث" يعلن عن وقت الحرث ويحث الفلاحين على الزراعة[25].

يظهر أيضا أن كل السنين باستثناء ثلاث (302 و317 و379-380هـ) عرفت نزول المطر بعد الصلاة، وهذا يعني أن السنة من الناحية المناخية ليست جافة، ومع ذلك تصنفها المصادر في خانة سنوات المحل، فمثلا ينقل ابن أبي زرع أن الناس استسقوا واستصحوا بعد مطر وابل وسيول عظيمة في سنة 342هـ/952م[26]. و يمكن تفسير ذلك أولا بالنفس المناقبي الذي يطبع أخبار الاستسقاء، وثانيا بنزول الغيث بعد فوات أوان الحرث كما حصل سنة 330هـ إذ تأخر حتى شهر فبراير[27]، أو يبس

(23) الوزان، وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ج1، ص. 81.
(24)ابن البناء المراكشي، رسالة في الأنواء، مكتبة لاروز، باريس، 1948، ص. 2.
(25) ابن عبدون، كتاب الحسبة، Journal Asiatique أبريل– يونيو 1934، ص. 195.
(26) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، دار المنصور، الرباط، 1972، ص. 100.
(27) ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص. 478.

الزرع كما كان الشأن سنة 302هـ إذ تأخر إلى ماي فـ "تمسك به بعض الزرع وذهب الأكثر باستيلاء اليبس عليه، فصرحت السنة عن ذاتها و اعتدى القحط شاملا الأندلس كلها"[28].

لقد سمحت أحداث الاستسقاء بتسليط الضوء على مشكل الجفاف الدوري الذي تعاني منه الأندلس على رأس كل إثني عشر سنة تقريبا، كما وضحت أن مفهوم الجفاف لا يعني انعدام المطر بل فقط عدم نزوله بشكل منتظم ومتوافق مع السنة الفلاحية، ووضحت أيضا أن النظام المطري في الأندلس نظام شتوي وأن التساقطات غير منتظمة بين السنين وحتى داخل السنة الواحدة. وكل هذه الخصائص توافق المناخ المتوسطي الحالي لشبه الجزيرة الإيبيرية.

إلى جانب هذه الصلاة توجد صلاة أخرى لها علاقة بالمناخ وهي صلاة الصحو التي تقام من أجل طلب توقف الأمطار وزوال الغيوم لكثرتها وطول مدتها[29]. ويمكن أن تساعدنا على معرفة السنوات المطيرة، لكن و للأسف لا توفر المصادر معلومات حولها و لم نحصل إلا على إشارة واحدة تخص سنة 342هـ/952م، ويقول فيها ابن أبي زرع : "و استسقى الناس في هذه السنة واستصحوا، وجاءت السيول العظيمة بجميع الغرب"[30].

2 - خصائص مناخية من مصادر أخرى

تم تفريغ المعلومات المتوفرة في الجدول 2، ويمكن أن نلاحظ مدى وفرة المعلومات مقارنة مع الجدول الأول وتكاملها ولكن أيضا تشابه في المعطيات باستثناء بعض الاختلافات البسيطة.

(28) نفسه، ص. 103.
(29) ابن منظور، المصدر السابق، ج14، ص. 452 .
(30) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص. 100.

2 – خصائص مناخ الأندلس الأموية

السنة	الشهر	الحدث	المكان	الآثار	المصدر
138هـ/756م	كل السنة	مطر وابل	الأندلس		ذكر بسبب فتح الأندلس
147هـ/765م		جفاف	الأندلس		ذكر بلاد الأندلس وفضلها
148هـ/766م		فيضان	قرطبة	تخريب وقتل	ذكر بلاد الأندلس وفضلها
161هـ/777م	حتى أبريل	جفاف	الأندلس		ذكر بلاد الأندلس وفضلها
161هـ/777م	أبريل	فيضان	قرطبة	تحطيم القنطرة	ذكر بلاد الأندلس وفضلها
162هـ/778م	3 أيام	فيضان	قرطبة	تحطيم القنطرة	ابن عذاري ج2
177هـ/793م	السنة	مطر وابل	الأندلس		ذكر بلاد الأندلس وفضها
182هـ/798م		فيضان	قرطبة	تخريب	ابن عذاري ج2
189هـ/805م		جفاف	الأندلس	مجاعة–موت	ذكر بلاد الأندلس وفضها
197-199هـ/813م		جفاف	الأندلس	مجاعة–موت	ذكر بلاد الأندلس وفضلها–ابن عذاري2 المقري 1
207 هـ/822م		جفاف	الأندلس	مجاعة	ابن عذاري ج2- ابن حيان 2
222هـ/837م		فيضان	الأندلس		الخشني/أخبار
232هـ/847م		جفاف	الأندلس	مجاعة–جراد	ابن حيان 2–ابن عذاري 2 – ابن الأثير 7 – ابن أبي زرع.
235هـ/850 م	يناير	فيضان	الأندلس	تخريب وقتل الأندلس	ابن حيان 2–ابن عذاري 2 –ذكر بلاد الأندلس
236هـ/850م		جفاف	كورة تدمير		ابن حيان 2
244هـ/858م	السنة	جفاف	الأندلس	عدم الحرث	ابن عذاري 2
260هـ/874م	السنة	جفاف	الأندلس	جوع وباء – لصوصية	ابن حيان 3- ابن عذاري 2 ابن أبي زرع ابن القوطية قضاة قرطبة
283-4هـ/896م	الصيف	أمطار قوية رياح قوية	الأندلس		ابن حيان 3
285هـ/898م		جفاف	الأندلس	مجاعة	ابن حيان 3 ابن عذاري 2 ابن أبي زرع
288هـ/901م		فيضان	قرطبة	تحطيم القنطرة	ابن عذاري 2
290هـ/903م			قرطبة	تحطيم القنطرة	ابن عذاري 2
296-7 هـ/910م		جفاف	الأندلس	مجاعة – موت	ابن حيان 3 الخشني /أخبار
302هـ/914م	كل سنة	جفاف	الأندلس	غلاء	ابن حيان 5 مدونة تاريخية
303هـ/912م	كل سنة	جفاف	الأندلس	جوع موت غلاء صدقة–لصوصية	ابن حيان 5 ابن عذاري 2 مدونة تاريخية
307هـ/919م		جفاف ريح قوية	الأندلس	موت – جوع	ذكر بلاد الأندلس وفضلها

السنة	الشهر	الحدث	المكان	الآثار	المصدر
314هـ/926م		جفاف	الأندلس		مدونة تاريخية
317هـ/928م		جفاف	الأندلس	غلاء	مدونة تاريخية ابن حبان 5
324هـ/936م	كل السنة	جفاف	قرطبة	رخاء – استيراد	ابن حيان 5
331هـ/942م		فيضان	قرطبة	تخريب القنطرة	ابن عذاري 2
332هـ/943م		مطر وابل	الأندلس قرطبة	موت الحيوان – كسر أشجار – هدم بيوت	ابن عذاري 2
333هـ/943م		ريح – برد	قرطبة		ابن عذاري 2
334هـ/944م		فيضان	قرطبة		ابن عذاري 2
338هـ/948م		برد وثلوج	الأندلس	دمار – موت	ذكر بلاد الأندلس وفضلها
350هـ/960م		جفاف	الأندلس	مجاعة	ذكر بلاد الأندلس و فضلها
351هـ/961م		فيضان	قرطبة	مجاعة	ابن عذاري 2
353هـ/963م		جفاف	قرطبة		ابن عذاري 2
375هـ/985م		مطر وابل	الأندلس	وباء	ذكر بلاد الأندلس وفضلها
379-381هـ/		جفاف	الأندلس	مجاعة – جراد	ابن أبي زرع – أعمال الأعلام 2 – ذكر بلاد الأندلس وفضلها
382هـ/992م	3 أشهر	فيضان ريح قوية	الأندلس		ذكر بلاد الأندلس و فضلها
385هـ/994م		ريح قوية	الأندلس		ذكر بلاد الأندلس و فضلها
399هـ/1008م	شهران	مطر فيضان متوالي	قرطبة	دمار – موت	ابن عذاري 2
401هـ/1010م	3أيام	فيضان	قرطبة	دمار – موت	ابن عذاري 2

يبدأ تعليقنا على الجدول بالحديث عن ضربات الجفاف التي تتعرض لها الأندلس قاطبة أو قرطبة ونواحيها وحدها، وهي حالات نادرة جدا. ورغم تأكيدنا على عدم اكتمال الصورة وغياب بعض المعطيات، فإننا سنعتمدها للاقتراب من الحقيقة. فأقصى مدة تفصل بين فترتي جفاف تصل إلى ست وعشرين سنة وأدناها إلى ثلاث سنوات .بمعدل يصل إلى اثني عشرة سنة تقريبا، وهذا يعني أن الجفاف يتكرر كلما مرت هذه المدة وهو ما اتضح لنا أعلاه من خلال أحداث الاستسقاء.

ترتبط بالجفاف الفيضانات المتكررة، بحيث نجد أن كل جفاف تعقبه فيضانات في نفس السنة أو التي بعدها، حتى إنه أصبح بالإمكان أن نحدد أحدهما بوجود الآخر فقط. والجدول يؤكد أن الفيضان يحدث كل خمسة عشر سنة وهو معدل قريب من مثيله بالنسبة للجفاف، وربما كان لغياب بعض المعلومات دور في هذا الاختلاف.

يتبين من الجدول أن الأندلس عرفت فترات باردة ومطيرة امتدت على مدى سنوات وهي : (161 –189هـ) و(331– 353 هـ) و(382–401هـ) ، وتميزت بأمطار طوفانية دائمة وفيضانات وثلوج ورياح باردة، وقد يكون هذا الوضع مرتبطا بسيادة الرياح القطبية واستقرار الجبهة القطبية جنوب أوربا. وفترات جافة شملت (189 –220هـ) و (236 –283هـ) و(290 –331هـ) ترتبط بسيادة الكتل المدارية الحارة. ودون أن نؤمن بحتمية تأثير الظروف الطبيعية في التطور السياسي نقول أن النوع الأول وافق فترات استقرار في الأندلس بينما وافق الثاني فترات اضطرابات وقلاقل.

يوفر الجدول أيضا معلومات حول بعض السنوات المطيرة على امتداد كل شهورها بما فيها الصيفية مثل سنين : 177 و283 و284، وسنين رياح دائمة وقوية مثل 283 و284 و332 و 307 و 382 و385 هـ.

في الأخير نستنتج أن مناخ الأندلس غير مستقر ومتقلب بين السنين، بحيث يعرف فترات جفاف وفيضان دورية كل اثني عشرة سنة تقريبا. كما يعرف فترات مطيرة ومعتدلة وأخرى جافة وحارة .

3 - خصائص مناخ الأندلس

تسمح النتائج السابقة بأن نستنتج ما يلي :

– النظام المطري في الأندلس شتوي حيث تنزل الأمطار في نهاية الخريف والشتاء وبداية الربيع.

– عدم توازن التساقطات السنوية، إذ قد تنزل باستمرار أو بداية الموسم أو وسطه أو آخره مما يؤثر على السنة الفلاحية سلبا.

– عدم توازن التساقطات بين السنين.

– تعرض الأندلس لضربات جفاف دورية تتكرر كل اثنتي عشرة سنة. تنتهي كل فترة جفاف بأمطار طوفانية وفيضانات قوية تترك آثارا وخيمة على الحياة.

– تتداول الأندلس فترات رطبة ومطيرة وأخرى جافة وحارة تدوم فترات غير منتظمة وغير مستقرة.

إن كل الخصائص التي عرضناها واستنتجناها إضافة إلى موقع الأندلس الجغرافي تؤكد أننا أمام مناخ متوسطي لا يختلف كثيرا عما هو سائد حاليا، وبذلك تكون مصادرنا رغم فقرها قد قربتنا من بعض خصائص هذا المناخ.

4 – آثار المناخ على الأندلس

إن خاصية التقلب والحدة وعدم الاستقرار التي تميز مناخ الأندلس (المناخ المتوسطي) تجعل آثاره على الحياة الطبيعية والبشرية شديدة وقوية. وسنعمل على تحديد بعضها حسب الظاهر.

إن ضربات الجفاف المتكررة تعد من أكثر الظواهر تأثيرا على البلاد، فبمجرد ما يظهر أثره بعجز الفلاحين عن الحرث أو ضياع المحصول بالعطش تبدأ الحبوب بالندرة في الأسواق إلى أن تختفي تماما، فترتفع الأسعار بشكل قوي، ويكفي لإظهار خطورة ذلك أن نذكر ما وصلت إليه سنة 303هـ/915م فقد "بلغ قفيز القمح بكيل قرطبة ثلاثة دنانير درهم دخل أربعين"، أما في الثغر الأعلى (سرقسطة) فوصل "قفيز القمح اثني عشر درهما فضة"[31]. وتتكرر هذه الحالة في كل أزمة باستثناء سنة 324هـ التي لم تعرف ارتفاعا بفضل استيراد الحبوب من العدوة المغربية[32]. وعادة ما يقترن بالجفاف انتشار الجراد الذي يلحس الأرض ويحرم الناس حتى من الأعشاب الطبيعية[33]. ويتبع ارتفاع السعر انتشار المجاعة والوباء في أوساط الفقراء فيكثر الموتى لحد العجز عن دفنهم[34]. ويتدخل السلطان وأهل البر

(31) ابن حيان، المصدر السابق، ج5، ص 109 و124 وابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص.167-168.

(32) ابن حيان، المرجع السابق، ج5، ص. 384.

(33) نفسه، ج2، ص143. و225 وابن عذاري، المصدر السابق، ج2، ص89. وابن أبي زرع، المصدر السابق، ص. 115.

(34) المقتبس، ج5، ص124. والبيان المغرب، ج2، ص73. و89 و مجهول، ذكر بلاد الأندلس وفضلها، مخطوط الخزانة الملكية، الرباط، رقم 558، ص. 182.

والإحسان للتخفيف من المشكل بإفشاء الصدقات. ففي جفاف 197هـ "تصرف الحكم [الربضي] بأموال جليلة في الضعفاء والمساكين وعابر السبيل"[35] و"أكثر فيها مواساة أهل الحاجات"[36]، وفي عام 303هـ "كثرت صدقات الناصر لدين الله في هذه الأزمة على المساكين وأهل الفاقة وعلى المتعففين عن المسألة وصدقات أهل الحسبة من رجاله المؤتسين به"[37]، وفي عام 350هـ أمر الحكم المستنصر بتوزيع اثني عشر ألف خبزة يوميا[38]، وفي عام 353هـ "تكفل الحكم بضعفائها ومساكينها بما يقيم أرماقهم، وأجرى نفقاته عليهم بكل ربض من أرباض قرطبة وبالزهراء"[39]، وفي عام 379-380هـ كان المنصور العامري يفرق كل يوم اثنين و عشرين ألف خبزة على الضعفاء كما أسقط الأعشار وتكفل بدفن الموتى[40]. ورغم انتشار المساعدات فلا تكفي وكثيرا ما تقتصر على قرطبة، لذلك تشتد الحاجة في الأقاليم وتنتشر اللصوصية كما حصل سنة 303هـ حيث كان الجياع "لا يفترون عن العدوان على من مر بهم من رفاق المسلمين وطالبي المعيشة وجالبي الميرة"[41]، و تواجه هذه العمليات بشدة بالقتل والصلب والتعذيب[42]. وتختار فئة أخرى مغادرة الأقاليم الجافة إلى الخصبة أو إلى المغرب. ففي عام 297هـ/909م "عبر كثير منهم البحر إلى أرض العدوة"[43]. و يؤثر الجفاف أيضا على مشاريع الدولة ويتعطل الكثير منها، وأولها توقف الجباية إما بالتنازل عنها أو العجز عن جمعها[44]، وثانيها الجهاد الذي يتوقف لعدم قدرة الناس على تجهيز أنفسهم[45]. ويكفي لإظهار خطورته بالنسبة للدولة أن نعيد الملاحظة التي سبق لنا الحديث عنها وهي توافق فترات الجفاف مع فترات الاضطراب في الأندلس خلال هذه الفترة.

---

(35) ذكر بلاد الأندلس، ص. 155.
(36) نفح الطيب، ج1، ص . 319.
(37) المقتبس، ج5، ص. 109-110.
(38) ذكر بلاد الأندلس، ص. 201.
(39) البيان المغرب، ج2، ص. 236.
(40) ذكر بلاد الأندلس، ص. 212-213.
(41) المقتبس، ج5، ص. 110.
(42) قضاة قرطبة، ص. 151.
(43) المقتبس، المكتبة الشرقية، باريس، 1937، ج3، ص. 143.
(44) ذكر بلاد الأندلس، ص. 212-213. وقضاة قرطبة، ص151. وابن القوطية، تاريخ افتتاح الأندلس، دار النشر للجامعيين، ص. 106-107.
(45) المقتبس، ج5، ص. 110.

لا تقل آثار الفيضان خطورة على البلاد، فأول النتائج تظهر بتدمير البنيات التحتية وخاصة القناطر على الأنهار الكبرى وعلى رأسها النهر الكبير عند قرطبة وإشبيلية وهو ما يتكرر في كل الفيضانات كما يظهر الجدول. ويدمر أيضا كل ما يجده في طريقه، ففي سنة 148هـ/765م "كان سيل عظيم في قرطبة حمل الدور والناس والدواب"(46)، وفي عام 182هـ/798م "ذهب بربض القنطرة [قرطبة] ولم يبق فيه دارا إلا هدمها، حاشى غرفة عون العطار، وبلغ السيل شقندة"(47)، وفي عام 235هـ/849م دمر الوادي الكبير في كورة إشبيلية ست عشرة قرية وذهب ببعض سكانها وأمتعتهم وبهائمهم وحطم وادي شنيل القنطرة عند استجة وذهب بالأرحاء وحمل وادي تاجه ثمان عشرة قرية وصار عرضه ثلاثين ميلا(48)، وفي عام 401هـ/1010م هدم النهر من أرباض قرطبة نحو ألفي دار وما لا يحصى من المساجد والقناطر وأكثر السور كما مات فيه نحو خمسة آلاف شخص(49). وعلينا أن نتصور حجم الخسائر في ظل ضعف البنايات وندرة وسائل الإنقاذ. ويضاف إلى هذه الخسائر تجريف التربة واقتلاع الأشجار والأحياء التي تموت أو تفقد شروط عيشها.

وتخلف باقي الظواهر خسائر كبيرة، ففي سنة 332 هـ "هبت ريح عاصف ردفتها أخرى، فاقتلع كثيرا من شجر الزيتون والتين و غيرها من الأشجار والنخيل، وأطار كثيرا من قرميد السقف "ورافقها مطر وابل وبرد غليظ" فقتل كثيرا من الوحش والطير والمواشي، وأتلف ما أصاب من الزرع وأساء التأثير"(50)، ونزل برد غليظ بلغ وزنه رطلا قتل الطير والوحوش البهائم وكسر الأشجار وقتل بعض الناس عام 338 هـ(51).

هكذا يلاحظ أن مناخ الأندلس يخلف خسائر كثيرة على البيئة الطبيعية والبشرية بالجفاف والفيضانات والأمطار الطوفانية والبرد الغليظ والرياح الهوجاء الباردة والحارة.

---

(46) ذكر بلاد الأندلس، ص. 134.
(47) البيان المغرب، ج2، ص. 70.
(48) المقتبس، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1971، ج2، ص146. و البيان المغرب، ج2، ص. 89.
(49) البيان المغرب، ج3، ص. 105.
(50) البيان المغرب، ج2، ص. 211.
(51) ذكر بلاد الأندلس، ص. 195.

4 - خـاتمـة

إن المعطيات التي توفرت ورغم عدم اكتمالها قد قربتنا من خصائص مناخ الأندلس في عهد الأمويين، وأهم خاصية ميزته هو طابعه الانتقالي بين المناخين المعتدل والحار مما يطبعه بالتقلب وعدم الاستقرار والحدة والتطرف التي تعكسها الخسائر الكبيرة التي يخلفها.

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

رقم الايداع بالخزانة العامة 1977/1
الرقم الدولي الموحد : 0851 — 1160